شعر سقوط طليطلة (البعد النفسي والفني)

طليطلة إحدى ممالك الطوائف ، عاصمة الأندلس الأولى قبل دخول طارق بن زياد إليها ذات جنات وأنهار ، وفواكه نادرة ، حصينة منيعة [1]، وقد كان المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة قد بنى فيها قصراً ملفتاً للأنظار بما فيه من إحكام الهندسة ، وأغدق عليه المال الكثير [2] ، وهذا شأن ملوك الطوائف في المنافسة وتحصين ممالكهم بالبناء لاخوفاً من الفرنج ، بل توجساً وخشية من بعضهم . ويصف المصري عبدالله بن خليفة القرطبي هذا القصر حيث يقول :

قصرٌ يقصّرُ عن مداه الفرقـــدُ ... عَذُبَت موارِدُهُ وطابَ المَـــــــورِدُ
نشَرَ الصّباحُ عليهِ ثوبَ مكارِمٍ ... فَعَليــهِ ألـــــــويةُ السـعادةِ تُعـقَدُ
وكأنّما المأمونُ في أرجـائِهِ ... بـــــدرُ تمـــــامٍ قابـلتهُ أسعـــــــدُ
وكأنّمـــا الأقداحُ في راحـــاتِهِ ... درٌّ جَمـــــادٌ ذابَ فيهِ العَســـــــجَدُ[3]

وكانت هذه المملكة الطليطلية ، أولى الممالك سقوطاً سنة ٤٧٨ هـ ، " وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة ، وواسطة القلادة ، تدركها من جميع نواحيها ، ويستوي في الأضرار بها قاصيها ودانيها "[4] ، أخذها العدو بعد حصار شديد من يد القادر بن المأمون يحيى بن ذي النون(٥) ، وقد كان سقوطها صدمة قويّة ، ومن أعظم نتائجها خطراً سقوط دول الطوائف واندثارها على يد المرابطين ، فقد جاء سقوط طليطلة نتيجة الضعف والخلافات بين دول الطوائف الذين استعانوا بالفرنج لمحاربة بعضهم ، وقد وجد الأذفونش بذلك فرصة للتدخل في شؤون ممالكهم والاشتطاط في الضرائب وإذلالهم . ونسمع صوت ابن العسّال الزاهد شاعر طليطلة في هذه الكارثة ، فطليطلة وطنه ومسقط رأسه فبدل أن يبكي ماحل ببلده ، نراه يدعو الأندلسيين إلى القهقرى والانهزام والارتحال من بلدهم ،وقد يكون هذا اللون السلبي مبالغة في التّذكير والتنبيه (٦) ، يقول(٧):

---

1 الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥، ص٣٩٣، ٣٩٤.

2 المقري ، أحمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر بيروت ، ج١ ، ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

3 ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق ، سالم مصطفى البدري ـ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط١ ، ١٩٩٨ ، ج٤ ، ص٢١٢. ونفح الطيب ، ج١ ، ص٥٢٩ .

4 الذخيرة ، ج٤ ، ص١٥٤.

5 النفح ، ج٤ ، ص ٣٥٢.

6 إحسان عبّاس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة بيروت ، لبنان ، ط٥، ١٩٧٨، ص١٨٣

7 النفح ، ج٤ ، ص ٢٥٣.

يـــــاأهلَ أندلسٍ حُثّوا مطيّكُمُ فما المُقـــامُ بـــها إلاّ من الغَلَطِ

الثّوب ينسلُ من أطرافِهِ وأرى ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوَسَطِ

ونحـــــنُ بينَ عــدوٍّ لايفارِقنا كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَطِ

وممّا يدلّل على هذه الظاهرة الانهزاميّة ،ما يتبدّى عند أبي القاسم بن الخيّاط الفقيه " لمّا أخذ النّصارى طليطلة ، وقد حلق رأسه وشدّ الزنّار ، وقال له أحد أصحابه في ذلك :أين عقلك ؟! فقال : مافعلت ذلك إلاّ بعد أن كمل عقلي " [1]، وأنشد أبياتاً منها ([2]):

تلوّن كالحرباءِ حين تـــــــلوّنِ وأبصَـــــرَ دنيـــــاهُ بملءِ جفونِـــــهِ

وكلٌّ إلى الرّحمن يومي وجهَهُ ويـــذكُرُهُ في جـــــهرِهِ ويقيـــــــــنِهِ

ولو أنّ ديناً كانَ نفياً لخالقـــي لما كنتُ يوماً داخـــــلاً في فنونِـــــهِ

ويبدو من أبيات ابن العسّال والخيّاط ، أنّهما لم يستوعبا هول الصدمة ، ولعلّها المعاناة اليائسة عن الفعل والمواجهة ، فكأنّ الثّوب إذا نسل من الوسط انتهى أمره ، فهل كان السقوط الذي تلا سقوط طليطلة فيما بعد من التداعيات السلبيّة التي عبر عنها الشّعر في نفوس النّاس ، أم هي نبوءة الشعر التي تسبق الأحداث العظيمة .

والشّاعر في طليطلة شأنه شأن باقي الشعراء الأندلسيّين الذين عانوا غربة مكانية ، وغربة نفسيّة ، فهذا الشّاعر ابن بقيّ الطليطلي يعاني غربة، لكنّه يدعو إلى استبدال المكان من الأندلس إلى المغرب ، يقول ([3]):

قالوا تغرّبتَ من أقطارِ أنـــــــدلسٍ ومن يقيمُ على هونٍ وإقلالِ؟

مالي وإيطانِها داراً وقد سئِمـــــــت من المقامِ بها خيلي وأجمالي

نفضتُ فيها من العيشِ الهنيِّ يدي وهل يعيشُ كريماً بينَ بخّالِ

---

[1] ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ،دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٣ ، ج٢ ، ص ٢٢.

[2] المصدر السابق نفسه

[3] صلاح جرار ، ابن بقي حياته وأدبه ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠١.

ولعلّه حين نقل مايلام به من النّاس ومايداخله من شعور نفسي يؤلمه لايبديه في ترحّله عن وطنه ، يجعله يعرض حيرته على نفسه وعلى الآخرين بصورة استفهام ، كي يشفع له ويبرّر رحيله ، "ومن يقيم على هونٍ وإقلال ؟" ، ويردفه باستفهام آخر " مالي وإيطانها أرضاً ؟" فيصل إلى قرار مُكرهٍ عليه ، "نفضت فيها من العيشِ الهنيّ يدي " ، وقد أورثه تشرّده المكاني والزماني " آلاماً نفسيّةً كثيرة وصفها في شعرِهِ وشكا منها ، وشكا من الغربةِ ، وفراقَ الوطنِ والأحبّة ، واشتكى من الذلِّ والضيّاع وشدّة الشوق للوطن " ([1]) ، وقد انتابت ابن بقي لواعج الحزن والحنين إلى الماضي ، حتى أوصلته إلى جعل الماضي ضرباً من الخيال ، بقوله ([2]) :

كم من أجل بُعديَ عن صحبي بكيتُ دمـــــا
كم لـــي هنالِـــــكَ من ســـربٍ ووصلِ دمـــا
وعسكر اللّيـــــــلِ في الغـــربِ قد انهَزَمـــــــا

ويستخدم كم الخبرية التكثيرية ويخصّ بعدها نفسه ، والسرب الذي يخصّه هو ، لتبثّ مافي نفسه من تشوّق وألم ونزف دماء .

ويعاني مع الواقع الجديد ، غربة من نوع آخر ، هي غربة اللغة والقوميّة العربية ، وهو مايذكّر بغربة المتنبي في يده ووجهه ولسانه ، يقول ابن بقيّ ([3]):

أكلُّ بني الآدابِ مثليَ ضائعٌ فأجعلُ ظلمي أسوةً في المظالِمِ
ستبكي قوافي الشّعرِ ملءَ جفونِها على عربيٍّ ضاعَ بينَ الأعاجِمِ

ولعلّ الا ستفهام هنا ، يعكس مدى الحيرة والقلق في نفس الشّاعر ، ويحمّل نفسه المسؤولية عن ذلك ، حيث يشخّص قوافي الشّعر فيجعلها تبكي عليه ملء جفونها ، كهذه النفس التي امتلأت بالألم والإحساس بالضّياع .

ويصوّر ابن بقي حالة القلق والتأرجح بين البقاء والرّحيل ، فكلا الحالين ستؤدي إلى الغربة ، يقول ([4]):

ستجزعُ إن صرتَ في ركبِهِم وإن لاتَسِرْ بِهِم تجزعِ
ولي كبـــــدٌ لو غَـدا بالصّفا لذبنَ وبالوُرقِ لم تسجَعِ

---

[1] المصدر السابق ، ص١٨٨

[2] المصدر نفسه

[3] ابن سعيد ، المغرب ، ج٢ ، ص٢٠

[4] المصدر نفسه ، ص ٢٩.

ويقدّم الخبر على المبتدأ " ولي كبدٌ " ليدلّل على خصوصيّة مابداخله هو من ألمٍ ومعاناة ، لدرجة تغيّر معها كينونة ماحوله من عناصر الطبيعة ، فتذيب الصخور وتخرجها عن قساوتها ، وتلجم الحمائم عن هديلها .

أمّا القصيدة الطويلة التي رثيت بها طليطلة ، وبلغت اثنين وسبعين بيتاً ، فهي لشاعر لم يذكر اسمه ، ويرجح د. حسين خريوش ماذهب إليه د. طاهر مكي ، من نسبة هذه القصيدة إلى الشاعر أبي الوليد الوقشي الذي عاصر الأحداث ، وهو من شعراء طليطلة (١) ، وقد أوردها صاحب النفح ، بقوله : " ومن قول بعضهم يندب طليطلة " (٢):

١الثُّـــــكلك كيـــف تبتسمُ الثّغـــورُ سـرورا بعـــدما سبيت ثغـــورُ؟!
٢أمـــا وأبـــي مـــصابٌ هدَّ منه ثبيـــرُ الدّيـــنِ فاتّصـــلَ الثّبورُ
٣لقد قُصِـــمَت ظهورٌ حـــين قالـــوا أميـــرُ الكافريـــنَ له ظهـــورُ
٤تـــرى في الـــدّهرِ مسروراً بعيـــشٍ مضـــى عنّـــا لطيّـــته السّـــرور
٥أليسَ بهـــا أبـــيٌّ النّفـــسِ شـــهمٌ يـــدورُ علـــى الدّوائـــرِ إذ تـــدورُ
٦لقد خَضَـــعت رِقـــابٌ كـــنَّ غُـــلباً وزالَ عتـــوُّها ومضـــى النّـــفورُ
٧وهـــانَ علـــى عزيـــزِ القَـــومِ ذلٌّ وســـامَحَ في الحريـــمِ فتـــىً غَيـــورُ
٨طليطلةٌ أبـــاحَ الكفـــرُ منها حمـــاها ، إنَّ ذا نبـــأٌ كبيـــرُ
٩فليسَ مثـــالَها إيـــوانُ كســـرى ولامنـــها الخَوَرنـــقُ والسّـــديرُ
١٠محصـــنَةٌ محسّـــنةٌ بـــعيـــدٌ تناوُلُـــها ومطلبُـــها عســـيرُ
١١ألم تـــكٌ معقِـــلاً للدّيـــنِ صعباً فـــذلّـــلهُ كـــما شـــاءَ القديـــرُ ؟
١٢وأخـــرَجَ أهـــلَها منـــها جميعاً فصـــاروا حيثُ شـــاءَ بـــهم مصـــيرُ
١٣وكانـــت دارَ إيـــمانٍ وعلـــمٍ معالِمُـــها التي طُمِسَـــت تُنيـــرُ
١٤فعـــادت دارَ كـــفرٍ مصـــطفاةً قد اضطـــربت بأهليـــها الأمـــورُ
١٥مساجِـــدُها كنـــائسُ ، أيُّ قـــلبٍ على هـــذا يقـــرُّ ولايطيـــرُ ؟
١٦فيـــا أســـفاه يا أســـفاهُ حـــزناً يُكـــرّرُ ماتكرّرت الـــدّهـــورُ

1 انظر ، حسين خريوش ، بنية التراث الروحي والاجتماعي في مرثية طليطلة ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد٦٨ ، المجلد ١٧ ، ١٩٩٩ ، ص٧٦

2 انظر ، النفح ، ج٤ ، ص٤٨٣-٤٨٦ .

١٧ وينشـــرُ كـــلَّ حسنٍ ليسَ يُطـــوى إلى يـــومٍ يكـــونُ به النشـــتـــورُ
١٨أديـــلَت قاصِراتُ الطّـــرفِ كانـــت مصـونات مســـاكنُـها القصـــورُ
١٩وأدركَـــها فتـــورٌ في انتـــظـــارٍ لِســـربٍ في لواحِـــظِهِ فتـــورُ
٢٠وكانَ بـنـــا وبالقَيْـــناتِ أولـــى لو انضـــمّت على الكـــلّ القبـــورُ
٢١لقـــد سخِـــنَت بحالتـــهنَّ عيـــنٌ وكيـــفَ يصـــحُّ مغلـــوبٌ قريـــرُ
٢٢لقـــد غبـنـــا عن الإخـوانِ بأحـــزانٍوأشجـــانٍحضـــورُ
إنّـــا

٢٣نـــذورٌ كـــانَ للأيـــامِ فيـــهم بِمَهْـلِكِـــهم فـــقد وفـت النّـــذورُ
٢٤فـــإن قـلنا العقـــوبةُ أدركتـــهم وجـــاءَهُمُ مـــن الله النـــكيرُ
٢٥فإنّـــا مثلُـــهُم وأشـــدُّ منـــهم نجـــور، وكيـــفَ يسلَمُ من يجـــورُ
٢٦أنـــأمنُ أن يحـــلّ بنـــا انتقـــامُ وفينـــا الفســـقُ أجمـــعُ والفجـــورُ
٢٧وأكلٌ للحـــرامِ ولااضـــطـــرارٌ إليـــه فيسهـــلَ الأمـــرُ العســـيرُ
٢٨ولكـــن جـرأةٌ فـي عُقـــرِ دارٍ كـــذلكَ يفعـــلُ الكلـــبُ العَقـــورُ
٢٩يـــزولُ الستـــترُ عـــن إذا مـــا علـــى العصـــيانِ أُرخِيَـت السُّـــتورُ
٣٠يطـــولُ علـــيَّ ليلـــي ربَّ خطـــبٍ يطـــولُ لهولـــهِ اللّيـــلُ القصـــيرُ
٣١خـــذوا ثـــأرَ الدّيانـــة وانصـــروها فقـــد حـــامت على القتلـى النُّســـورُ
٣٢ولاتهنـــوا وســـلّوا كـــلَّ عضـــبٍ تهـــابُ مضـــارِبـــاً منه النُّـــحورُ
٣٣ومـــوتوا كلُّـــكم فالمـــوتُ أولـــى بكـــم من أن تُجـاروا أو تَجـــوروا
٣٤أصـــبراً بعـــدَ سبـيٍ وامتـــحانٍ يـــلامُ عليهـــما القلـــبُ الصَّبـــورُ
٣٥فأمُّ الثّـــكلِ مِذكـــارٌ ولـــودٌ وأمُّ الصّـــقرِ مِقـــلاتٌ نـــزورُ
٣٦نَخـــورُ إذا دُهـــينا بالـرّزايا ولـــيسَ بمعجـــبٍ بَقـــرٌ يخـــورُ
٣٧ونجبُـــنُ ليسَ نزأرُ لـــو شِجـــعنا، ولم نجبـــن ، لكـــانَ لنا زئيـــرُ
٣٨لقـــد ساءت بنا الأخبـــارُ حتّـــى أمـــاتَ المخبـريـــنَ بـــها الخبـيرُ
٣٩أتتـــنا الكُتْـــبُ فيهـــا كـلُّ شـرٍّ وبشّـــرنا بأنحـــسنا البـــشيرُ
٤٠وقيـــل تجمّعـــوالِفراقِ شَمـــلٍ طُلَيطِلَـــةٌ تملّكهـــا الكَفـــورُ
٤١فقـــل في خـــطّةٍ فيهـــا صغارٌ يشيبُ لِكَربِهـــا الطّفـــلُ الصّغيـــرُ

٤٢لقد صمَّ السّمَيعُ فلم يعوّل على نبأ كما عَمِيَ البَصيرُ

٤٣تجاذبنا الأعادي باصطناعٍ فينجذِبُ المخَوّلُ والفقيرُ

٤٤فباقٍ في الدّيانةِ تحتَ خزيٍ تثبّطُهُ الشُّوَيهةُ والبعيرُ

٤٥وآخَرُ مارقٌ هانَتْ عليهِ مصائبُ دينهِ فَلَهُ السعيرُ

٤٦كفى حَزَنًا بأنّ الناس قالوا إلى أيْنَ التحوّلُ والمسيرُ

٤٧أنتركُ دُورَنا ونفرّ عنها ولَيْسَ لَنا وراءَ دُورُ

٤٨ولا ثَمَّ الضّياعُ تَروق حسنًا نباكرها فيعجبنا البكورُ

٤٩وظلّ وارفٌ وخريرُ ماء فلا قرّ هناك ولا حَرورُ

٥٠ويؤكلُ من فواكهها طَريُّ ويُشربُ من جداولها نميرُ

٥١يؤدّي مَغْرَمٌ في كلّ شهرٍ ويؤخَذُ كلّ صائفةٍ عُشُورُ

٥٢فهم أحمى لحوزتنا وأولى بنا وهُمُ الموالي والعشيرُ

٥٣لقد ذهب اليقينُ فلا يقينٌ وغرّ القومَ بالله الغَرورُ

٥٤فلا دينٌ ولا دُنيا ولكن غرورٌ بالمعيشةِ ما غرورُ

٥٥رَضُوا بالرقّ يا لَلّه ماذا رآهُ وما أشارَ بهِ مُشيرُ

٥٦مضى الإسلامُ فابْكِ دَمًا عليه فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ

٥٧ونُح واندبْ رفاقًا في فلاةٍ حيارى لا تحطُّ ولا تسيرُ

٥٨ولا تَجْنَحْ إلى سِلمٍ وحارب عسى أن يُجْبَرَ العظمُ الكَسيرُ

٥٩أنعمى عن مراشدنا جميعًا وما إن منهمُ إلا بصيرُ

٦٠ونَلْقى واحدًا ويفرّ جَمْعٌ كما عن قانصٍ فرّت حميرُ

٦١ولو أنّا ثبتنا كانَ خيرًا ولكنْ ما لَنا كرمٌ وخيرُ

٦٢إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ فليس بنافعٍ عددٌ كثيرُ

٦٣ألا رَجُلٌ لَهُ رأيٌ أصيلٌ به مما نحاذِرُ نستجيرُ

٦٤يكرُ إذا السّيوفُ تَناوَلَتْهُ وأينَ بِنا إذا ولّتْ كُرورُ؟

٦٥ويطعن بالقنا الخَطّار حتى يقول الرّمحُ ما هذا الخطيرُ

٦٦عـــــظيم أن يكـــــون الناسُ طُرّا بأندلـــسٍ قتـــيلٌ أو أسيـــــرُ

٦٧أذكّـــــر بالقـــــراع الليث حرصًا عـــــلى أن يقـــــرع البَيْضَ الذكورُ

٦٨يبـــادرُ خَـــرْقَها قـــبلَ اتّساعٍ لخـــطبٍ مـــنْهُ تنخســـفُ البدورُ

٦٩يـــوسّع للذي يلقاهُ صـــــدرًا فقَـــدْ ضاقَـــتْ بمـــا تَلقى صُدورُ

٧٠تتغّـــصت الحـــــياةُ فلا حياةٌ وودع جـــيـــرة إذ لا مـــجيرُ

٧١فليـــلٌ فيـــهِ هـــمٌ مستكينٌ ويـــومٌ فيـــهِ شـــرٌ مـــستطيرُ

٧٢ونرجـــو أن يُتيحَ الـــله نصـــرًا عليـــهم، إنّـــهُ نـــعمَ النـــصيرُ

يبدأ الشاعر القصيدة بتقديم الجار والمجرور " لثكلِكِ " ويردفها بكيف ، فهذه المدينة التي ثكلت أبناءها وثكلوها حوّلت مسار الحياة وانقلبت معها الأوضاع :

لثُـــــكلِكِ كيف تبتسمُ الثّغـــورُ سُـــروراً بعـــدما سبيت ثغـــورُ؟!

أمـــا وأبـــي مـــصابٌ هدَّ منه ثبيـــرُ الدّيـــنِ فانّصـــلَ الثّبورُ

لقد قُصِمَت ظهورٌحـــين قالـــوا أميـــرُ الكافريـــنَ له ظهـــورُ

تـــرى في الـــدّهرِ مسروراً بعيـــشٍ مضـــى عنّـــا لطيّـــته السّـــرور

أليسَ بهـــا أبـــيٌّ النّفـــسِ شـــهمٌ يـــدورُ علـــى الدّوائـــرِ إذ تـــدورُ

لقد خَضَـــعت رِقـــابٌ كـــنَّ غُـــلباً وزالَ عتـــوُّها ومضـــى النّـــفورُ

وهـــانَ علـــى عزيـــزِ القَـــومِ ذلٌّ وســـامَحَ في الحريـــمِ فتـــىً غَيـــورُ

طليطلةٌ أبـــاحَ الكفـــرُ منها حمـــاها ، إنَّ ذا نبـــأٌ كبيـــرُ

فهذا التقديم للاسم " لثكلك " فيه بلاغة الإحساس بالفقد فقد تملّك معنى الفقد مشاعره ممّا أثار استنكار الشاعر الابتسام لانعدام معنى السّرور بعد سبي الثغور ، فجاء معنى الثكل متقدّما في لفظ الشاعر، لتقدّم هذا المعنى في نفسه كما يقول الجرجاني : " الكلم تترتّب في النطق بسبب ترتّب معانيها في النّفس " [1].ونراه يوجّه الخطاب لطليطلة وينزلها منزلة العاقل ، ثمّ

---

1) الجرجاني ، عبد القاهر بن عبدالرحمن ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تحقيق ، عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ٢٠٠١ ، ص٤٦.

ينتقل إلى إحساسه الخاصّ بالفقد ، حيث يقسم بأبيه بأنّ المصاب الجلل قدّ هدّ بسببه جبل ثبير ، ولعلّنا نرى الشاعر الجبل وقد هُدّت قواه ، فعكس مافي نفسه من تهاوٍ للقوّه المعنويّة الدينية ،ويدلّل على ذلك باتصال "الثّبور" ، فجعل هذه الكلمة لها اتصال باللفظ باسم ثبير الجبل ، لكن تبدّلت الحال من القوّة " ثبير " إلى الضعف والثبور المتواصل غير المنقطع ، فقُصمت الظّهور ،ولعلّ استخدام صيغ المبني للمجهول في " هُـدّ وقُصِمت فيه مبالغة ، وفيه أنساق متكرّرة متوازية باللفظ وبالمعنى ، لماتسببه من ألم وحسرة تجعلها حاضرة في النفوس ، فتغني عن ذكر الفاعل .

ولعلّ محاولة الشاعر استحضار السّرور بتكرار لفظة السّرور في قوله :

ترى في الدّهرِ مسروراً بعيشٍ مضى عنّا لطيّتـــــــه السّــرورُ

فتكرارها من جديد استحضار للغائب الذي عاشه الشّاعر قبل سقوط طليطلة ،وتأثّر بالغ بفقده ، والنّفس لاتشتاق للذي عايشته إلاّ بعد غيابه عنها ، فتحاول استحضاره حتّى باللّفظ ، ثمّ يتساءل الشّاعر مستنكراً وباحثاً عن الأبيّ الذي يعيد الكرّة على الدوائر التي تدور ، ولعلّ استخدام الألفاظ (يدير ، والدّوائر ، وتدور) فيها معنى الانغلاق والحركة في فلك واحد ، وفيها معنى الحلقات المتكرّرة ، بصورة يحار معها المرء ، فكأنّ الشاعر في دوّامة الحدث الذي لايحتاج إلاّ الفارس الأبيّ المثالي ، الذي يملك تغيير هذا الواقع المرير ، ثمّ يأتي بعدها بجمل خبريّة سُبقت بقد زيادة في التوكيد ، فقد تحوّلت النّفوس ، وخضعت الرّقاب ، وهان الذلّ ، وفقدت الغيرة والحميّة ، وهو تحوّل فيه استسلام وإذعان واستكانة ، وكأنّ الذّات العربية فقدت شخصيّتها التي عرفت بها من الأنفة ورفض الذلّ . فهل كانت المحنة قاصمة حتّى ذهبت بالقلوب وبالصّفات ، وتحوّلت معها الشخصيّات الحقيقية لأفراد الأمّة ؟
ويعود الشاعر للفظة طليطلة ليؤكد لنفسه أنّه ليس في حلم ، بل أمام مصيبة حقيقية حلّت بطليطلة التي قدّم الثكل منذ البدء برثائها .

ونراه يراوح بين الخبر والإنشاء ، بين الشكّ واليقين ، بين التّصديق وعدم التّصديق ، فليس إلاّ الذلّ والهوان وتولّي السرور ، ويستنكر حال السرور إن وجد ،وقد جاء المطلع ينعى طليطلة وماحلّ بها ، فهو يريد بطلاً شهماً تنقلب مع شجاعته المعادلة ، بعد خضوع رقاب المسلمين ، والإمارة للكافرين وهذه من المفارقات .

ثمّ ينتقل لوصف مكانة طليطلة وحصانة بنائها:

فليسَ مثـــالَها إيـــوانُ كســـرى ولامنـــها الخَورنـــقُ والسّـــديرُ
محصـــنّةٌ محسّـــنةٌ بـــعيـــدٌ تناولُـــها ومطلبُـــها عســـيرُ
ألم تـــكٌ معقِـــلاً للدّيـــنِ صعباً فـــذلّـــلهُ كـــما شـــاءَ القديـــرُ ؟

وقد بولغ في منعتها وتحصينها حتّى فاقت إيوان كسرى ،وقصري الخورنق والسدير ، فصور البناء المعقد ، ثم يقدم لها صفات تحمل أنساقا موسيقية متكررة ، (محصنه ، محسّنه) ، ويسم جو المصدر "تناولها " لتتضح المفارقة ، فحينما يكون المطلب عسيرا لمنعة المدينة ، يأتي سقوطها أشدّ حسرة ، وأبلغ في الصّدمة ، فبقدر حلول المدينة في نفسه يحلّها هذه المكانة الرفيعة ،ويحاول إشراك من حوله بالاستفهام بمكانتها الدينية ، ولعلّ إرجاع سقوطها للإرادة الإلهية ،استسلام وإذعان ، وقد يحمل مدلولاً أنّ هذه المدينة على الرغم من تحصينها سقطت لتخاذل أهلها وتنابذهم وخورهم ، حتّى عاقبهم الله بإذلالهم وإذلال مدينتهم بقدرته . ولعلّ المرثيّة قد نفذت إلى أعماق طليطلة ، وأظهرت تخلخل شرط وجودها ، وكان سقوط المدينة ، سبباً من أسباب تساؤلاته عن إشكاليّة سقوطها[1] .

ثمّ يقارن بين حالها في الماضي وحالها في الحاضر :

وأخـــرَجَ أهـــلَها منـــها جميعاً فصـــاروا حيثُ شـــاءَ بـــهم مصـــيرُ
وكانـــت دارَ إيـــمانٍ وعلـــمٍ معالِمُـــها التي طُمِسَـــت تُنيـــرُ
فعـــادت دارَ كـــفرٍ مصـــطفاةً قد اضطـــربت بأهليـــها الأمـــورُ
مساجِـــدُها كنـــائسُ ، أيُّ قـــلبٍ على هـــذا يقـــرُّ ولايطيـــرُ ؟
فيـــا أســـفاه يا أســـفاهُ حـــزناً يُكـــرّرُ ماتكرّرت الـــدّهـــورُ
وينشـــرُ كـــلَّ حسنٍ ليسَ يُطـــوى إلى يـــومٍ يكـــونُ به النشـــتـــورُ
أديـــلَت قاصِراتُ الطّـــرفِ كانـــت مصـــوناتٍ مســـاكنُـــها القصـــورُ
وأدركَـــها فتـــورٌ في انتـــظـــارٍ لِســـربٍ في لواحِـــظِهِ فتـــورُ
وكانَ بـــنـــا وبالقَيْـــناتِ أولـــى لو انضـــمّت على الكـــلّ القبـــورُ

لقـــد سخِـــنَت بحالتـــهنَّ عيـــنٌ وكيـــفَ يصـــحُّ مغلـــوبٌ قريـــرُ
لقـــد غبـــنـــا عن الإخـــوانِ إنّـــا بأحـــزانٍ وأشجـــانٍ حضـــورُ
نـــذورٌ كـــانَ للأيـــامِ فيـــهم بِمَهْـلِكِـــهم فـــقد وفـــت النّـــذورُ

---

[1] حسين خريوش ، بنية التراث الروحي والاجتماعي في مرثية طليطلة ، ص٩٤

فـــإن قـلنا العقـــوبةُ أدركتـــهم وجـــاءَهُمُ مـــن الله النـــــكيرُ

لقد طمست معالمها ، وتبدو التحوّلات الدينية واضحة ، فقد عادت دار كفر ، وتحولت المساجد كنائس ، لقد انقلبت أمور المدينة بعدما تحوّلت القلوب والتصرّفات ،وهذا أفضى إلى حالة من القلق ،وموادعة الاستقرار ، فما حصل كان فوق طاقة القلوب التي لايقرّلها قرار، إذ كيف لايطير اللبّ مع هذا التحوّل ومع هذه الفاجعة ،ونرى التحوّل من المثاليّة المطلقة في التحصين ، إلى السّقوط والتحوّل والإذلال ، فكأنّ الشاعر يرتقي بمثاليّة المدينة إلى عنان السّماء ، ثمّ يهوي معها إلى الأسفل ، ممّا يجعل ماحصل يفوق التوقّع ، ويوقعه في حيرة تختلّ معها المعايير.ويحاول تفسير ماحدث بين حالتي الشكّ واليقين ، رابطاً بين الذنوب والمصائب ، محذّراً أن يحلّ بباقي المدن ماحلّ بطليطلة :

فـــإن قـلنا العقـــوبةُ أدركتـــهم وجـــاءَهُمُ مـــن الله النـــــكيرُ
فإنّـــا مثلُـــهُم وأشـــدُّ منـــهم نجـــور، وكيـــفَ يسلَمُ من يجـــورُ
أنـــأمنُ أن يحـــلّ بنـــا انتقـــامُ وفينـــا الفســـقُ أجمـــعُ والفجـــورُ
وأكلٌ للحـــرامِ ولاضـــطـــرارٌ إليـــه فيسهـــلَ الأمـــرُ العســـيرُ

ونراه يضع افتراضات لتخرجه من هذه الحيرة مستخدماً أسلوب الشرط ، ومقايساً بين حال هؤلاء ، وحال باقي مدن الأندلس ، فينتقل ملتفتاً من ضمير الغائب عنهم ، إلى ضمير الجمع المتكلم ، متنبئاً أنّ العقوبة قادمة لتلحق أهل المدن الأخرى ، ويستخدم الاستفهام بكيف (وكيف يسلم من يجورُ) وبالهمزة التي سبقت الفعل (أنأمن) وفي ذلك يقول الجرجاني :"إذا بدأت بالفعل على أنك تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنّه لايكون ، أو أنّه لاينبغي أن يكون "[1] وفي هذا إنكارٌ لشعورهم بالأمن من العقوبة ، لأن الفسق والفجوروأكل الحرام سيؤول بهم ، إلى ماآل إليه أهل طليطلة .

ثم يستنهض هممهم ليهبّوا ويأخذوا بالثأر ، ويدعوهم للموت بدلاً من الهروب من دورهم كما فعل ابن العسّال :

خـــذوا ثـــأرَ الدّيـــانـة وانصـــروها فقـــد حـــامت على القتلـــى النُّســـورُ

---

1 الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص٨٣.

ولاتهنـــوا وســـلّوا كـــلَّ عضـــبٍ تهـــابُ مضـــارِبـــاً منه النُّـــحورُ

ومـــوتوا كلُّـــكم فالمـــوتُ أولـــى بكـــم من أن تُجـاروا أو تَجـــوروا

أصـــبراً بعـــدَ سبـــيٍ وامتـــحانٍ يـــلامُ عليهـــما القلـــبُ الصَّبُـورُ

ويستخدم الأمر والنهي ، وإن لم ينهضوا فالموت أولى بهم ، ويستنكر الصبر بعد السبي والإذلال ، فليس هذا بصبر ، بل هو الذلّ والاستكانة ، فالموت ليس شيئاً إرادياً يسعون إليه ، بل هو دعوة عليهم بالموت الذي يعكس قهر الشاعر وألمه وسعيه للخلاص ، وتساوي حالة الذلّ عنده بالموت المخلّص الذي قد يجعله يصل إلى حالة من الراحة ، والتخلّص من شحنات القهر .

ثمّ يعرض أحوال ذلّ حكّام الأندلس ، ومصانعتهم للفرنج ورضاهم بالخنوع ، خوفاً من الفقر ، أو حرصاً على على الرزق ، أو مهانة للدّين في نفسه :

تجاذبنـــــا الأعـــــادي باصطناعٍ فينـــــجذِبُ المخَـــــولُ والفقـــيرُ

فبـــــاقٍ في الدّيانةِ تـــحتَ خـــزيٍ تثبّطُـــــهُ الشُّوَيهـــــةُ والبعيـــرُ

وآخَـــرُمـــــارقٌ هـــانَتْ عـــليهِ مـــصائِبُ دينـــهِ فَلَهـ السعيـــرُ

نَخـــــورُ إذا دُهـــــينا بالـــرّزايا	ولـــيسَ بمعجـــبٍ بَقَـــرٌ يخـــورُ
ونجبُـــنُ ليسَ نزأرُ لـــو شِجـــعنا،	ولم نجبـــن ، لكـــانَ لنا زئيـــرُ
ونَلْقـــى واحـــدًا ويفـــرّ جَمْعٌ	كمـــا عـــن قانـــصٍ فرّت حميـــرُ

ونراه ينقل عدسة الكاميرا على هذه المشاهد المفجعة والمذلّة ، ويستخدم صور المفارقة لوصف جبنهم ، ونرى الأبيات تستوحي صور الحيوان في شيء من الألم ، وجاءت بعض الصور على التصغير المنبئ لما آلت إليه الحال " كالشويهة والبعير" ، وفي هذا تعريض وتهكم ([1]) ، ونسمع صوت خواء النفوس من خوار البقر الذي لاقيمة له ولامعنى ، ونسمع صوتالأقدام وهي تفرّ جبناً كفرار الحمير التي تفرّ من القانص ، ويستوحي الصورة من التنزيل الكريم ، في تصويره المعرضين عن الحقّ " :كأنّهم حُمُرٌ مستنفرة ، فرّت من قسورة [2]"

---

[1] حسين خريوش ، بنية التراث الروحي والاجتماعي في مرثية طليطلة ، ص١٠١.

[2] سورة المدثر ، الآية ٥٠ ، ٥١ .

ثمّ يثور على أهل طليطلة باستسلامهم للذلّ والهوان ، متحدّثاً بلسان حالهم ، أين الفرار ولادور لنا وراء البحر ،فلنبق في مدينتنا ويستذكر ظلالها الوارفة وفاكهتها الطرية ومياهها العذبة .

لقـــــد ساءت بنا الأخبـــارُ حتّـــى ... أمـــاتَ المخبـريـــنَ بـــــها الخبـيرُ
أتتـــــنا الكُتْـــبُ فيهـــــا كـلُّ شـرٍّ ... وبشّـــــــــرنا بأنحـــسنا البـــشيرُ
وقيـــــل تجمّعـــوا لِفراقِ شَمـــلٍ ... طُلَيطِلَـــــةٌ تملّكهـــــا الكَفـــورُ
فقـــــل في خـــطّةٍ فيهـــا صغارٌ ... يشيبُ لِكَربِهـــا الطّفـــلُ الصّغيـــرُ
لقـــــد صـــــمَّ السّـــمَيعُ فلم يعوّل ... عـــلى نبـــأ كمـا عَمِيَ البَصـيرُ
كفـــى حَزَنًا بـــأنّ النـــاس قالـــوا ... إلـــى أيْـــنَ التحـــوّلُ والمـسـيرُ
أنتـــركُ دُورَنـــا ونفـــرّ عنـــها ... ولَـــــــيْسَ لَنـــــا وراءَ دُورُ
ولا ثـــمَّ الضّيـــاعُ تَـــروق حســـنًا ... نبـــاركها فيعـــجبنا البـــكورُ
وظـــلّ وارفٌ وخـــريرُ مـــاء ... فـــلا قـــرّ هـــناك ولا حَرورُ
ويـــؤكلُ مـــن فـــواكهها طَريُ ... ويُشـــربُ مـــن جـــداولها نميرُ
يـــؤدّي مَغْرَمٌ فـــي كـــلّ شـــهرٍ ... ويـــؤخَذُ كـــلّ صـــائفةٍ عُـشُورُ
فهـــم أحمـــى لحـــوزتنا وأولى ... بنا وهـــمُ المـــوالـــي والعـــشيرُ

ونرى في الأبيات وصفاً سرديّاً مؤلماً عمّا آلت إليه الأمور ، ويسجّل واقعاً تاريخياً فيما آل إليه ملوك الطوائف الذين يؤدون الضريبة للفرنج ، ويخلص إلى أنّهم أولى بأن يتولّوا الأمور ، ومقاليد الحكم ، وقد تساوى وجود ملوكهم مع عدمه ، ونرى تعدد مواطن الالتفات ، يتحدّث بضمير الجمع المتكلم (لقد ساءت بنا الأخبار) ثمّ المفرد الغائب (أمات المخبرين) ثمّ يعود إلى ضمير الجمع المتكلّم (أتتنا الكتب ، وبشّرنا) ثمّ يعود لضمير الغائب (قيل) ثمّ إلى ضمير المخاطب (تجمّعوا) ، ويعود للغائب المفرد (تملّكها)وهكذا....ثمّ يعود للحديث بلسان النّاس (أنترك دورنا ونفرّ عنها....فهو ينقلنا إلى هذه الحوارات الدّاخلية التي تفيض بالحركة والاضطراب الذي يعتري نفس الشّاعر القلقة التي لاتقرّ ولاتهدأ .

ثمّ يعود ليستثير الهمم ، ويوبّخ على النكوص والجبن والتخاذل ، ويذكر بما دعا إليه ، حتّى لايتّسع الخرق ، ونراه يخاطبهم بأسلوب وعظي ، ويطلب بطلاً أسطورياً ، شجاعاً يكرّ ولايفرّ ،راسماً صورتين مختلفتين بين الواقع وبين مايأمله ويتخيّله ويرجوه .

أنعـــمى عن مـــــــــراشدنا جميعًا ... ومـــا إن مـــنهمُ إلا بـــــــصيرُ
ولـــو أنّـــا ثـــــــبتنا كانَ خيرًا ... ولـــكنْ مـــــا لَنـــا كـــرمٌ وخيرُ
إذا مـــا لـــم يـــكن صبرٌ جميلٌ ... فليـــس بنـــــافعٍ عـــددٌ كـــثيرُ
ألا رَجُـــلٌ لَـــــــهُ رأيٌ أصيلٌ ... بـــه مـــــما نـــــحاذِرُ نستجيرُ
يـــــكرُ إذا السّيـــــــوفُ تَناوَلَتْهُ ... وأيـــنَ بِنـــا إذا ولّـــــتْ كُرورُ؟

ويعود للواقع فيضيق العيش ، ويتّصل الهمّ ليل نهار ، لكنّ ذلك لم يفقده تفاؤله ورجاءَه بالنّصر :

تنغّـــصت الحـــــياةُ فلا حياةٌ ... وودّع جـــيـــــرة إذ لا مـــــجيرُ
فليـــلٌ فيـــــهِ هـــمٌ مستكينٌ ... ويـــومٌ فيـــهِ شـــرٌ مـــستطيرُ
ونرجـــو أن يُتيحَ الـــله نصـــرًا ... عليـــهم، إنّـــهُ نـــعمَ النـــصيرُ

ولم نجد القصيدة ،تأخذ نسقاً واحداً ، بل نجد الانفعال والقلق فيها واضحاً ، فالشاعر ، يكون لديه يقين، ثمّ يعود إلى الشكّ ، ثمّ يأمر ويحذّر فيبكي ويلوم ويوبخ ، وقد تكون بعض العبارات صريحة في الشتم "كذلك يفعل الكلب العقور " و " كما عن قانصٍ فرّت حميرُ " ، ولايدري على من يلقي باللائمة ، على المقادير ، على الناس الذين أوصلتهم ذنوبهم لهذا المصير ، يشرك نفسه معهم في الخور وضعف الهمة ، ثم ينفصل عنهم ويوبخهم وحدهم ، يتحدث بلسان حالهم ، ويتحسّر على المساجد وعلى ماحلّ بالحرائر. ثمّ إنّ التحولات في الضمائر تشي بحالة من الاضطراب والانفعال في الحركة ، فتعطي النصّ حيويّة وتستثير القارئ ، مع أنّ النصّ يشبه أن يكون عرضاً سردياً بلغة سهلة تصف الواقع ، لكنها تحمل شحنات انفعالية تستخدم فيها صيغ لغوية ، تحمل دلالات نفسيّة .وقد تسهم كل جوانب اللغة ،

من اختيار الكلمات ونظام ترتيبها ومواقعها في الجمل والعبارات في إحداث التأثير العاطفي ، وبذلك تستطيع الكلمات أن تعبّر عن العواطف والانفعالات([1]).

أمّا الموسيقا في الشعر قيد الدراسة ، فجاءت من التكرار والترصيع والطباق والتقسيم وغيرها ،فالتكرار للأسماء أو الأفعال أو الصيغ أو الأدوات يقوي تأثير المعنى ، ويكشف عن البعد النفسي والعاطفي ، وظاهرة التكرار " إلحاح على جهة هامة في العبارة ، يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها ، وذلك كامن في كل تكرار يخطر على البال ، وهو بذلك ذو دلالة نفسية تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس النصّ ، ويحلّل نفسيّة الكاتب ، لأنّه يضع في أيدينا مفتاح الفكرة المتسلّطة على الشاعر ، أو هو هندسة عاطفية "للعبارة " يحاول فيه الشاعر أن ينظم كلماته ، بحيث يقيم أساساً عاطفياً من نوع آخر " [2] بالإضافة إلى أنّه يعطي للنصّ جمالية في الموسيقا والإيقاع ، من خلال المزاوجة بين الألفاظ ، مع تفريغ الشحنات النفسية عبر المعاني الداخلية والألفاظ الخارجية التي تتناغم عاطفياً مع المعاني التي يحملها النصّ ، من ذلك ألفاظ تكررت بالمعنى ذاته في المرثية الطويلة من ذلك كلمة (أسفاه):

فياأسفاه ياأسفاه حزناً يُكرّر ماتكرّرت الدّهورُ

فلم يكتف الشاعر بتكرار " أسفاه " بل جعل هذا التكرار ممتدّاً لاينتهي ، ليفيض مافي نفسه من حسرة وحزن يتنامى مع امتداد الدّهور ، "ويكرّر وتكررت " يؤكد على خصوصية التكرار ويتناغم مع قافية الرّاء الذي يختصّ حرف الرّاء بتكرار الصوت ليتناغم معنى ولفظاً وموسقية مع الهدف العام للنصّ ، ثمّ

يتبعها في صدر البيت بكلمة (فتور) في قوله :

وأدركَـــها فتـــورٌ في انتـــظـــارٍ لِســـربٍ في لواحِـــظِهِ فتـــــــورُ

"وأدركها فتور" في الشطر الأول " في لواحظه فتور" في الشطر الثاني واللفظة المكررة تتناغم مع القافية ،لتعطي البيت خصوصية لفظية ومعنوية تحمل الغيرة والقهر على النساء ، نحسّ معه برنين الألم .

وكلمة (نذور) في قوله :

نـــــذورٌ كـــــانَ للأيـــامِ فيـــــهم بِمَهْـلِكِـــــهم فـــــقد وفـــت النّـــــذورُ

---

[1] أولمان ، ستيف ، دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٢ .١٠٤.

[2] عز الدين إسماعيل ، التكرير بين المثير والتأثير، دار الطباعة المحمدية ، مكتبة البلاغة، القاهرة ١٩٧٨، ٢٩٥.

والفعل (نجبن) في قوله :

ونجبُـــنُ ليسَ نزأرُ لـــــو شِجـــعنا، ولم نجبـــــــن ، لكـــــــانَ لنا زئيـرُ

وكلمة (الحياة) في قوله :

تنغّـــــصت الحـــــــياةُ فلا حياةٌ وودع جـــــيـــــرة إذ لا مـــــجيرُ

ونحس كأنّ الشاعر يستمرئ اجترار الألم ساعياً للخلاص والرّاحة في التعبير عن هذه المفارقات التي تحمل عمق أحزانه ، ولايستطيع استيعابها .

كما قد يأتي التكرار من كلمات تربط بينها على كلمات بينها علاقة اشتقاقية ، مع وجود معنى مشترك ، من ذلك (يدير ، الدوائر ، تدور) في قوله :

أليـسَ بهـــا أبـيٌّ النّفـــسِ شـــــهمٌ يـــــدورُ علـــى الدّوائِـــــرِ إذ تـــــدورُ

وكلمتي (مسرور والسرور) في قوله :

تـــرى في الـــــدّهرِ مسروراً مضـــى عنّـــا لطيّـــته السّـــــــــرور

بعيـــــش

و(نخور ويخور) في قوله :

نَخـــــــورُ إذا دُهـــــينا بالـرّزايا	ولـــيسَ بمعجـــبٍ بَقـــــرٌ يخـــورُ

و(نباكرها والبكور) في قوله :

ولا ثـمَّ الضّيـــاعُ تَـــروق حســـنًا نبـــاكرها فيعـــجبنا البـــــكورُ

و(يكرّ وكرور) في قوله :

يـــــكرُ إذا السّيـــــوفُ تَناوَلَتْهُ وأيـــنَ بِنـــا إذا ولّـــتْ كُرورُ؟

و(الخطّار والخطير) في قوله :

ويطعـــن بالقنا الخَطـــــار حتى يقـــول الرّمـــحُ مـــا هذا الخطيرُ

وغيرها من الصور [1]

ويعطي هذا التكرار تجانساً صوتياً ، و يدلّ على أنّ المعاني التي تدور في نفس الشّاعر وتشترك في الأصل الاشتقاقي هي معانٍ نامية وحيّة ، ولعلّ كثرتها لديه تعبّر عن شدّة معاناته [2]

---

[1] انظر الأبيات : ٢٩، ٣٠ ، ٣٣، ٣٨، ٣٩ ، ٤٣، ٥٤ ،٥٥، ٦٧ ، ٦٨، ٦٩ ، ٧٠، ٧٢.

[2] جرار ، صلاح ، قراءات في الشّعر الأندلسي ، دار المسيرة ، عمّان ، الأردن ، ط١، ٢٠٠٧، ص٨١.

أمّا الترصيع فقد جاء في فاتحة المقطوعات والقصائد فهو يعطي نوعاً من الانسجام الموسيقي لمطالع القصائد ، حيث نرى تكرار الرويّ في صدر البيت وعجزه من ذلك وصف المصري عبدالله بن خليفة القرطبي للقصر :

قصرٌ يقصّرُ عن مداه الفرقـــدُ عَذُبَت موارِدُهُ وطابَ المَـــــــورِدُ

ومن ذلك مابدئت به قصيدة مرثية طليطلة :

لثُـــــــــــكلِكِ كيـــف تبتسمُ الثّغـــــورُ ســـــروراً بعـــــــدما سبيت ثغـــ ـورُ؟!

أما الطباق فكان طبيعياً أن يستخدم في هذا الموطن ، لأن الرثاء يقارن بين حالين ، حال طليطلة وحال أهلها قبل السقوط وبعده ، مما يستدعي استخدام الثنائيات ، من ذلك الطباق بين (أطرافه والوسط) في قول ابن العسّال :

الثّوب ينسِلُ من أطرافِهِ وأرى ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوَسَطِ

والطباق بين (جهره ويقينه) في قول ابن بقيّ :

وكلٌّ إلى الرّحمن يومي وجهَهُ ويـــذكُرُهُ في جـــــهرِهِ ويقيـــــــنِهِ

وقوله مطابقاً بين (عربي والأعاجم) في قوله :

ستبكي قوافي الشّعرِ ملءَ جفونِها على عربيٍّ ضاعَ بينَ الأعاجِمِ

ومن المرثية الطويلة ، الطباق بين (مساجدها كنائس) ، يشي بالتحوّل المعنوي مع التنغيم اللفظي في قول الشاعر :

مساجِـــــدُها كنـــائسُ ، أيُّ قـــــلبٍ على هـــــذا يقـــــــرُّ ولايطيـــــــرُ ؟

و(قرّ وحرور) في قوله :

وظـــلّ وارفٌ وخـــــريرُ مـــــاء فـــــلا قـــــرّ هـــــناك ولا حَرورُ

والطباق الذي يحدث نغماً مألوفاً متداولاً بين (دين ودنيا) في قوله :

فـــلا ديـــــنٌ ولا دُنـــــــيا ولكن غـــــرورٌ بالمعيشـــــةِ مـــا غرورُ

وقد جاء حسن التقسيم والمقابلات في مواضع ، منها في بيتين متتاليين في الشطر الأول من كل بيت ، تعطي معنى التحوّل في المعنى وتتناغم معها الألفاظ ،وتعطي تقسيما منظماً متقابلاً ، قول الشاعر :

وكانـــــت دارَ إيـــــمانٍ وعلـــــمٍ معالِمُـــــها التي طُمِسَـــــت تُنيـــــرُ
فعـــــادت دارَ كـــــفرٍ مصـــطفاةً قد اضطـــربت بأهليـــــها الأمـــــورُ

وقوله في مقابلة معبرة ، تحمل معنى أن يحفل المرء بالنوع لا بالكمّ ، قوله :

فأمُّ الثّـــكلِ مِذكـــارٌ ولـــــــودٌ وأمُّ الصّـــــقرِ مِقـــــلاتٌ نـــَــزورُ

وفي هذا إثراء موسيقي ، يتناغم فيه المعنى مع اللفظ ، ويحكي التحوّلات والتبدلات بعد سقوط طليطلة ، أما

حرف الرويّ في القصيدة فهو الرّاء ومن صفاته أنّه صوت مكرّر ، ولاشكّ أنّ البكاء المتواصل والندب فيه تكرار لإفراغ شحنات النفس المتألمة ، بما يجعله ملائماً لموضوع الرثاء ،ولحرف الرويّ قيمة جمالية مع الوزن في إثراء موسيقا النصّ الشعري ، وكما نرى فقد جاءت القصيدة على بحر الطويل ، ولاشك أنّ الشاعر يستطيع تطويع البحور الشعرية والقافية ، ولايقتصر البحر الشعري على غرض معيّن ، ولايتخير الشاعر البحر العروضي لغرض معين يريده ([1]) . ولو انتقلنا إلى الحقول الدلالية في النصوص ، لنرى مدى انسجامها واتصالها بالحالة النفسية التي عبّر عنها الشعراء ، وحملت الحيرة والألم ، مثلاً الحقول الدلالية عند الشاعر ابن بقي: **تغربت ، هوان ، إقلال ، سئمت ، نفضت، العيش الهني ، بُعدي ، بكيت دما ، ضائع ، ستبكي ، ضاع ، ستجزع ، لذُبْن ، تسجع ، كبد .أما في مرثية طليطلة وردت الحقول الدلالية : ثكلك ، هُدَّ ، مصاب ، خضعت ، هانَ ، ذلَّ ، فذلّله ، أحزان ، أشجان ، انتقام ، الصبور ، نخور ، نجبن ، لفراق ، يشيب ، خزي ، هانت ، الرقّ ، ابكِ دماً ، الجوى ، الدّمع الغزير ، ونُح ، واندُب ، حيارى ، صبر جميل ، قتيل أو أسير ، همٌّ مستكينٌ** ، ولايخفى على الدّارس ماتحمله هذه الدّوال من بعد نفسي ، وماتعكسه من الذلّ والهوان والأحزان وحالات الأسى والاستسلام والحيرة والجبن ، والبكاء الذي لاينقطع ، وقد جاءت هذه الدّوال لتخدم المَضمون ، تحمل اللفظ والمعنى، و تتناغم مع التجانس الصوتي والتكرار والترصيع ، وحرف الرويّ ، وتلقي على الأسماع إيقاعاً ، تتناغم فيه كلّ هذه السمات الأسلوبية ، لتعبّر بصدق ملتاع عن الحال التي غشيت النّفوس ، حزناً على أول مدينة تسقط

[1] صابر عبدالدايم ، موسيقا الشعر العربي بين الثبات والتطور ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٣ ، ص١٠٨

المصادر والمراجع

_القرآن الكريم

_إحسان عبّاس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة بيروت ، لبنان ، ط٥، ١٩٧٨. أولمان ، ستيف ، دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٢.

_ إسماعيل ، عز الدين ، التكرير بين المثير والتأثير، دار الطباعة المحمدية ، مكتبة البلاغة، القاهرة ١٩٧٨.

_ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، .تحقيق ، سالم مصطفى البدري ــ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط١ ، ١٩٩٨ .

_ جرار ، صلاح ، ابن بقي حياته وأدبه ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ،عمان ، الأردن ، ١٩٧٨.

_جرار ، صلاح ، قراءات في الشّعر الأندلسي ، دار المسيرة ، عمّان ، الأردن ، ط١، ٢٠٠٧، ص٨١.

_الجرجاني ، عبد القاهر بن عبدالرحمن ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تحقيق ، عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ٢٠٠١

_حسين خريوش ، بنية التراث الروحي والاجتماعي في مرثية طليطلة ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد٦٨ ، المجلد ١٧ ، ١٩٩٩ .

_الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥، ص٣٩٣، ٣٩٤.

_ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ،دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٣

_ عبدالدايم ، صابر ، موسيقا الشعر العربي بين الثبات والتطور ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٣ .

_المقّري ، أحمد بن محمد التلمساني ، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٨.